دراسات تاريخية المجلد11 العدد 01 السنة 1445هـ/2023م ص ص416/429

مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352 EISSN :6723-2600

الوضع الصحي وآثاره في الجزائر والجنوب الغربي ، من بداية الاحتلال الفرنسي حتى مطلع القرن 20. .

The health situation and its effects in Algeria and the southwest, from the beginning of the French occupation until the beginning of the 20 century

رميتة عبد الغني

Remita Abdelghani

المركز الجامعي صالحي أحمد بالنعامة –الجزائر-

مخبر التراث الثقافي بالجنوب الغربي الجزائري في ضوء النقد المعاصر

(ولايتا النعامة والبيض)

remita@cuniv-naama.dz

الارسال: القبول : النشر: المرسل:

الملخص:

تهدف هذه الدراسة الى ابراز الصعوبات التي واجهها الجزائريون طيلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحت الاحتلال الفرنسي ، وبالموازاة مع انتشار عديد الأوبئة والامراض . و في مواجهتهم للظروف الطبيعية الصعبة من جفاف ومجاعات ، شكّلت جميعها جوائح كان لها الأثر الكبير على مختلف الأوضاع في الجزائر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية .

هو ما شكّل معاناة حقيقية للشعب الجزائري جرّاء سياسات الاحتلال والاستيطان طيلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وتدهور أحوال الأهالي في الجنوب الغربي بفعل الكوارث الطبيعية وتردي أوضاعهم الصحية والاجتماعية ، ما ساهم الى حدّ كبير في اندلاع ثورات الجنوب الغربي ضدّ الاحتلال الفرنسي (ثورات أولاد سيدي الشيخ وثورة الشيخ بوعمامة) .

وبالنسبة لسلطات الاحتلال ، فقد عمدت الى بناء عديد المراكز الصحية وبعض المستشفيات العسكرية في اهم المدن التي يقطنها المعمّرون ، كما استفاد منها أيضا الأهالي خوفا من تنقل العدوى الى المعمّرين ومن جهة أخرى من أجل كسب السكان خاصة في المناطق الثائرة .

الكلمات الدالة : القرن التاسع عشر – الاحتلال الفرنسي للجزائر – الكوارث الطبيعية وتردي الأوضاع الصحية والاجتماعية – اندلاع ثورات الجنوب الغربي -

Abstract

This study aims to highlight the difficulties faced by the Algerians throughout the nineteenth century and the beginning of the twentieth century under the French occupation, in parallel with the spread of many epidemics and diseases. And in their confrontation with the difficult natural conditions of drought and famine, all of them formed pandemics that had a great impact on the various conditions in Algeria, political, social, economic and demographic.

It is what constituted real suffering for the Algerian people as a result of the occupation and settlement policies throughout the nineteenth century and the beginning of the twentieth century, and the deterioration of the conditions of the people in the southwest due to natural disasters and the deterioration of their health and social conditions, which contributed greatly to the outbreak of the revolutions in the southwest against the French occupation (the revolutions of the sons of Sidi Sheikh and the revolution of Sheikh Bouamama).

As for the occupation authorities, they built many health centers and some military hospitals in the most important cities inhabited by the centenarians, and the people also benefited from them for fear of the infection spreading to the centenarians, and on the other hand, in order to win over the population, especially in the rebellious areas.

Keywords. The nineteenth century - the French occupation of Algeria - natural disasters and deteriorating health conditionsSocial - the outbreak of revolutions in the southwest.

مقدمة:

عرفت الجزائر كبقية دول منطقة البحر المتوسط وآسيا انتشارا لعديد الاوبئة والامراض ، قبل الاحتلال الفرنسي أي أثناء الوجود العثماني بها ، لكنّها لم تكن بتلك القوّة والفتك والتأثير الذي شهدته أثناء الاحتلال طيلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

لقد تنوّعت تلك الأوبئة والامراض الى جانب الكوارث الطبيعية من زلازل وجفاف واجتياح للجراد ممّا تسبب في مجاعات ، كان لها الآثار الوخيمة على ديموغرافية الجزائر وظروف الأهالي الصحية والاجتماعية ، ممّا ضاعف من معاناتهم تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي وممارساته لسياسة الاستيطان ، بدء بشمال الجزائر ثمّ التوغّل نحو المناطق الداخلية لاسيما نحو الجنوب الغربي في استراتيجية لنهب واستغلال مُقدّرات المنطقة ، وبسط السيطرة العسكرية عليها[1]

تتمحور اشكالية الدّراسة حول : نوعية الأوبئة والأمراض التي اجتاحت الجزائر عموما منذ بداية الاحتلال الفرنسي ، وعن مساهمة تلك الأوبئة والكوارث الطبيعيّة في تذمُّر الأهالي لاسيما في الجنوب الغربي الجزائري ودفعهم في كثير الأحيان للتمرُّد والثورة على المُحتل ، وعن موقف الادارة الاستعمارية في مواجهة الأوبئة والكوارث الطبيعية .

1. **الأوبئة والجوائح التي عرفتها الجزائر منذ الاحتلال الى مطلع القرن العشرين :**

على مدار التاريخ تزامن وجود البشر مع ظهور الجوائح والأوبئة والكوارث ، فكان لذلك آثار مدمّرة وأحيانا أخرى إحداث تغييرات في مسار التاريخ ومنها ما أنهى حضارات برمّتها . وقد ظهر ذلك حسب دراسات أثرية في شمال الصين القديمة منذ 7 آلاف سنة مضت أنّ وباء قضى على مئات الآلاف في مدّة قصيرة . وهناك أيضا طاعون أثينا في منتصف القرن الخامس ق.م ، وأثناء حرب أثينا واسبرطة الذي دمّر أثينا واستمرّ لمدة خمس سنوات وحسب كتابات المؤرخ Thucydide (460 ق.م-400 ق.م) التي وصف فيها المصابين بالوباء وأعراض تلك الاصابات [1] .

وفي القرن الثالث ق.م كان وباء قبرص وهو طاعون الذي فتك بحوالي 5 آلاف ضحية يوميا في روما وحدها . وفي العصور الوسطى في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي الذي قضى على 50 مليون في العالم ، منها 25 مليون في أوروبا وحدها وهو ما عُرف بـ " الموت الأسود " .

2.1 أهم الجوائح والأوبئة التي عرفتها الجزائر:

من أهم وأخطر الأوبئة والجوائح التي عرفتها الجزائر والتي مسّت كل الفئات الاجتماعية ، الطاعون والكوليرا والتي وان اختلفت أسباب ظهورها وعوامل تنقُّلها ، الاّ أنّها تشترك في كونها نتاج لجملة من العوامل والظروف ذات الصّلة بالمناخ وحالات الجفاف واجتياح الجراد إضافة الى حدوث المجاعات وأحيانا حدوث الزلازل [2] ، وجميعها وبتفاعل هذه العناصر كانت الآثار والنتائج جدّ وخيمة ومدمّرة على الشعب الجزائري .

أوّلا الطاعون : وهو وباء معروف منذ القديم Peste وهو مرض بكتيري عالي العدوى ، سببه القوارض البريّة وينتقل عبر البراغيث . فقد كان وصول هذا الوباء الفتاك الى الجزائر عبر عديد المسالك والطرق ، باعتباره ليس وليد البيئة الجزائرية بل هو دخيل عنها [3] إذ أنّ أشهر مناطق تواجده وانتشاره في الهند والصين ، كما تُعتبر منطقة الشرق الأوسط بُؤرة انتقاله للجزائر وشمال افريقيا .

فبغض النظر عن الطريق البري الذي قد يشكل مسلكا ثانويا في انتشار الوباء ، فإنّ الطريق البحري يبدو الأهمّ والأكبر ، باعتبار الجزائر تشكّل بموانئها الشرقية والوسطى والغربية في اطار العلاقات التجارية وأحيانا العسكرية حلقة ارتباط بمصادر الوباء ، التي تشمل الموانئ الآسيوية والأوروبية على الخصوص . ولعلّ النقاط البحريّة المباشرة لتنقّل الطاعون الى الجزائر تشمل تركيا (موانئ اسطنبول وإزمير) ومصر (ميناء الاسكندرية) مرورا بميناء طرابلس (ليبيا) ثم تونس .

ونظرا لعلاقة الجزائر بالباب العالي (قبل الاحتلال) وتنقل السّلع بينهما ، وعبر موانئ مصر بنقل البضائع ونقل الحجاج ، من هنا كانت الجزائر عرضة لانتقال عديد الأوبئة ومنها الطاعون [4] ، إذ كانت الجزائر العاصمة والمدن الساحلية الأكثر والأولى تعرُّضا لانتقال وباء الطاعون ، ليبدأ الانتشار في داخل البلاد لأهمّ الحواضر الى تلمسان وجنوبا باتجاه بسكرة و ورقلة والأغواط ومنها الى الجنوب الغربي والحدود الغربية [5] .

لقد حصد وباء الطاعون آلاف الضحايا من الجزائريين في عديد الفترات مطلع القرن التاسع عشر ، فبين سنتي 1817-1818 تم تسجيل أكثر من 13 ألف قتيل ، سجلت الجزائر العاصمة وحدها أكثر من ألفين ضحية تلتها سنة 1822 التي حصد فيها الطاعون أكثر من 2200 ضحية [6] .

لقد عادت حالات ظهور الطاعون أثناء الاحتلال الفرنسي في منتصف القرن التاسع عشر وفي نهايته وفي بداية القرن العشرين ، بتسجيل حالات وضحايا على المدن الساحلية كما تم تسجيل عودة للوباء أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها ، حيث ساهمت الأوضاع السيئة في انتشاره خاصة في الداخل الجزائري . فقد سجلت مدينة سكيكدة ما بين 1899-1935 موجتين لوباء الطاعون [7] ، وسجلت مدينة صور الغزلان حوالي مائة وفاة بهذا الوباء سنة 1921 كما سجلت قسنطينة حوالي 86 حالة إصابة سنة 1931 ، وسجلت مدينة وهران سنة 1946 حالتي إصابة .

ثانيا الكوليرا : وهي عدوى إسهاليه حادّة تنتج عن تناول طعام أو ماء ملوّث بعصيّات الضمة الكوليرية . ولايزال الكوليرا يشكّل تهديدا عالميا على الصحة العامّة ، ومؤشّرا على اختلال وعدم المساواة في مجالات التنمية الاجتماعية بين الشعوب والدول [8] .

حطّ وباء Choléra رحاله بالجزائر ابتداء من سنة 1834 بوهران بالمستشفى العسكري للمدينة ، وكان وصوله عبر الوافدين الأوروبيين من قرطاجنة وجبل طارق لينتشر بوهران التي كان يسود فيها سوء التغذية والفقر . لقد ظهرت أوّل الاصابات بالمرسى الكبير أي ميناء المدينة عبر البواخر الأوروبية ، وتم اعلان حالة الطوارئ بالموانئ الجزائرية الأخرى بالعاصمة ومستغانم وأرزيو [9] ، وبانتشار الوباء في مدينة وهران تم تسجيل مئات الضحايا من المدنيين و العسكريين الفرنسيين . واستطاع خلال هذه السنة 1834 الفتك بأكثر من 1400 قتيل في مدن البليدة ومعسكر ومستغانم في ظرف ثلاث أسابيع فقط ، وبقرابة 900 قتيل بعنابة في ظرف شهرين [10] .

في السنة الموالية 1835 غزا وباء الكوليرا الجزائر العاصمة ن قادما من مرسيليا وطولون ، عبر الباخرتين Le Triton و La Chimère [11]، وكان قد تم تكليف الطبيب Docteur Edward مبعوثا خاصا للجيش الفرنسي حول الوباء سنة 1834م بوهران ، ذلك أنّ وباء الكوليرا حصد في مرسيليا أكثر من 2500 قتيل.

لقد تمّ اكتشاف عدوى الكوليرا بالعاصمة الجزائر لدى عسكريين فرنسيين قادمين من فرنسا الى الجزائر ، في اطار قضاء عقوبة و حكم قضائي ، فتم وضعهم في الحجز بباب عزون . لقد أودى وباء الكوليرا سنة 1835م بحياة أكثر من 1400 قتيل من أصل 2500 مصاب ، وأكثر من 1200 مدني والباقي من العسكريين [12] .

لعلّ الضربة القاصمة لوباء الكوليرا كانت بوهران سنة 1849 م حيث تحوّلت المدينة الى بلاد أشباح ، يجول فيها الموت وشوهد فيها اخراج الجثث من مختلف الأحياء ، واستمرّ الوضع كذلك حوالي 6 أسابيع حيث حصد الكوليرا ثُمن سكان المدينة وثلث الحامية العسكريّة و 7 أطباء وأكثر من 80 ممرضا وممرضة ، و 12 من الأخوات البيض [13] وكان الوباء لا يُفرّق بين صغير وكبير وكان شهرا سبتمبر وأكتوبر من سنة 1849م مسرحا لهذا الوباء وما خلّفه من ضحايا بمثابة كارثة ديموغرافية بوفاة حولي أكثر من 200 ضحية يوميا [14] .

أمراض وأوبئة أخرى : من بين الاوبئة التي عرفتها الجزائر أيضا وباء **الجذري** La Variole ويحدث نتيجة الاصابة بفيروس ينتقل بين الأفراد المصابين الى الأصحاء ، له خصوصية الإرسال فقط بين البشر ويتميّز بطفح جلدي يشبه البثور على جلد المريض ، ويشكّل بعدها قشرة على الجلد بعد سقوطها تترك ندبة في مكانها . عانى الشعب الجزائري من وباء الجذري خصوصا بعد الفترة العثمانية وبداية الاحتلال الفرنسي ، على شكل موجات ظهرت بين سنتي 1831م و1833م ، ثم موجة أخرى سنة 1837 م وفي سنة 1840م أصاب الجذري حوالي ألفين شخص في قسنطينة وحدها [15] وحوالي 500 طفل سنة 1866م .

شكّلت فئة الأطفال الفئة الأكثر وتضررا من وباء الجذري باعتباره مرضا معديا وسريع الانتشار [16] ففي سنة 1877 م أصيب 473 طفلا بالجذري ممّا أدّى الى اغلاق عديد المدارس بسبب الوباء .

يُرجّح دخول الجذري الى الجزائر عن طريق التجار الايطاليين وأيضا اللاجئين الاسبان ، فاستوطن الجذري في الجزائر على شكل موجات متتالية ، مخلّفا هلعا كبيرا وسط السكان لما أحدثه من وفيات وتشوّهات وإعاقات كفقد البصر والبقع والندبات على الجلد وخاصّة الوجه . ولعلّ أخطر الموجات التي اجتاحت الجزائر تلك التي تزامنت بالكوارث الطبيعية الأخرى كالجراد والجفاف والمجاعات ، أي في ستينيات القرن التاسع عشر [17]

ومن الأوبئة الاخرى أيضا **التيفوس** Typhus وعُرف أيضا بـ" حمّى السجن " [18] حيث قتل ربع سجناء الانجليز وذلك سنة 1759 م ، واقترن ظهوره وانتشاره بالاكتظاظ والقذارة وانعدام النظافة . والتيفوس مرض معدي ينتقل عن طريق الحشرات كالقمل والبراغيث والعث والقراد ، وقد ارتبط ظهوره في الجزائر بالظروف المعيشية المُزرية الصعبة التي عاشتها البلاد ، خاصة في ظل الاحتلال الفرنسي أي أنّ التيفوس نتاج الفقر والآفات والكوارث الطبيعيّة من جفاف ومخلفات الحروب والمجاعات وغزو الجراد وسوء التغذية ، حتى شاع اسم آخر مرادف لهذا الوباء بمرض الفقر والمجاعة والشعوب البائسة [19] .

اقترن انتشار وباء التيفوس بالمحن والأزمات التي عرفتها الجزائر في فترات متتالية ، أثناء الاحتلال الفرنسي منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين . أي أنّ منحنى ارتفاع وتصاعد حالات الاصابة والوفيات رسمته الظروف الصعبة للجزائريين ، والتي عُرفت أيضا بالتاريخ الاجتماعي والديموغرافي الخطير في منتصف القرن الـ 19 حيث ساد الجفاف وزحف أسراب الجراد وظهور المجاعات [20] حيث ظهر أيضا بها وباء التيفوس .

كما عرفت قبلها أي مطلع ستينيات القرن التاسع عشر منطقة القبائل موجة تيفوس ، حصد فيها مئات الأشخاص وانتشر في البوادي والأرياف المجاورة للعاصمة ، ممّا اضطرّ السكان للفرار والنزوح نحوها ، وكانوا يحملون معهم عدوى الوباء ممّا دفع الادارة الفرنسية الى تجميعهم في مراكز لجوء حتى لا ينتشر التيفوس أكثر في المدينة [21] .

ظهرت موجات أخرى خطيرة وكبيرة لوباء التيفوس من نهاية القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين خاصة بمنطقة القبائل وقسنطينة ، واستمرّ انتشار الوباء بعد الحرب العالميّة الأولى بسبب الفقر وسوء التغذية وبؤس الجزائريين . كما أنّ الظروف السياسية الاقليمية والدولية لم ترحم الجزائريين بل ضاعفت من معاناتهم فالحرب العالمية الثانية شكّلت أحد أشواط الفتك التي سببها وباء التيفوس لاسيما سنوات 1942م-1943م [22] .

على العموم فإنّ الجزائر عانت الكثير من هول مختلف الأوبئة والأمراض والتي لم تقتصر فقط على ما ذكرنا ، لكننا حاولنا التركيز على أهمّها والأكثر أثرا وانتشارا وفتكا ، فقد كان أيضا ظهور وانتشار حمى المستنقعات Paludisme ذات الصلة بالمياه الراكدة والبعوض ، والتي تكون مصحوبة بعد الإصابة بفقر الدم وهو ما عرفته منطقة المتيجة قرب العاصمة الجزائر وهو ما تناولته تقارير الجيش الفرنسي في بداية الاحتلال خاصة في فصلي الصيف والخريف [23]، وحسب ذات التقارير فلم تنقطع الاصابات بهذه الحمّى طيلة قرن من الزمن أي من بداية الاحتلال حتى مطلع القرن العشرين والتي أحدثت هلعا متواصلا بين المعمّرين ، واستطاع أن يصيب ثلثي سكان منطقة المتيجة . كما لم تسلم مدن وجهات أخرى في الجزائر من حمّى المستنقعات بوهران وقسنطينة [24] .

2- آثارو انعكاسات الجوائح والأوبئة على الجزائريين :

لا يمكن بأي حال من الأحوال تناول آثار وانعكاسات الاوبئة والجوائح التي أشرنا اليها سابقا على الجزائريين ، بمنأى عن ظروف الاحتلال والسياسة الاستعمارية الاستيطانية المُسلّطة على الجزائريين من جهة ، ومحن أخرى أصابته بالتوازي مع تلك السياسة من كوارث طبيعية ضاعفت من معاناته ، ولعلّنا نقصد مجاعات سنوات ستينيات القرن التاسع عشر وما صاحبها من غزو أسراب الجراد والجفاف .

بدأت تلك السياسة منذ السنوات الأولى للاحتلال مستهدفة بالدرجة الأولى بسط النفوذ على الجهة الشمالية للبلاد واحتلالها بالقوّة والبارود ، بإخضاع العاصمة و المتيجة ، ثم الغرب الجزائري والشرق من خلال جملة من التدابير السياسية والعسكرية والقانونية ، رغم ما واجهته من مقاومات في تلك الجهات والمناطق ، والتي تركت آثارها الوخيمة في عديد الميادين : الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية .

أوّلا في الميدان الاقتصادي : وقد شملت مُصادرة الأراضي بعدما فقد الجزائريون جزءا كبيرا من ممتلكاتهم وأرزاقهم ، فانتقلوا من ملاّك ليصبحوا خمّاسين لدى المعمّرين ، وتحوّلوا الى الفقر المدقع وساءت أحوالهم المعيشية والصحيّة . وقد قامت الادارة الاستعمارية الفرنسية بفرض تشريعات لتقييد المجتمع الجزائري وبالتالي قضت على التوازن الاجتماعي ممّا أحدث اختلالات جسيمة داخل المجتمع والأرياف من خلال فرض الضرائب المجحفة ، وبالتالي انخفضت الملكية الزراعية للفلاحين الجزائريين ، كما عرفت الثروة الحيوانية تراجعا ملحوظا [25] .

ثانيا في الميدان الاجتماعي : عرف تعداد الجزائريين تراجعا ملحوظا منذ الاحتلال ، فحتّى نهاية القرن التاسع عشر لم يتجاوز عدد السكان الجزائريين الـ 3 ملايين ولعلّ لذلك أسبابه ، كنتيجة لسياسة الاحتلال والكوارث الطبيعية وأيضا نتيجة لتعرُّض القطاع الزراعي لعديد الآفات كالجفاف واجتياح أسراب الجراد وهو ما تسبّب في المجاعات وساعد على توطين وانتشار الأوبئة الفتّاكة ، حيث قُدّر عدد الوفيات بمئات الآلاف [26] وهو أيضا ما تسبّب في النزوح الريفي نحو المدن ممّا أوجد نزيفا سكانيا بعد تراجع عدد سكان المناطق الداخلية

وازدحام في الحواضر والمدن ، لاسيما الجزائر العاصمة وهو ما شكّل فرصة أخرى لاستيلاء المعمّرين على الأراضي الزراعية في المناطق الداخلية المهجورة .

ثالثا في الميدان الديموغرافي : كان ضمن أولويات الادارة الفرنسية التركيز على الوضعية الديموغرافية للجزائر منذ بداية الاحتلال ، بمعنى العمل على إحداث معادلة استيطانية تقوم على تقليل تعداد الجزائريين مُقابل الرفع من أعداد المعمّرين ، واتضح ذلك جليا في سياسة الجنرال بيجو القائمة على حرب الابادة والاستيلاء على الاراضي [27].

لقد كان للمكاتب العربية دور في ترسيخ هذا الهدف الخطير في سياسة ادارة الاحتلال الفرنسي منذ سنة 1844م ولعلّ ما جسّد تلك السياسة هو تشجيع الهجرة الأوروبية نحو الجزائر ، لاسيما بالنسبة للمزارعين الاوروبيين وإنشاء المستوطنات الزراعية القائمة على نقل الملكية بعد نزعها من أصحابها وذلك بموجب مرسوم 19 سبتمبر 1848م [28]. وتبعا لهذه السياسة الاقصائية للعنصر البشري الجزائري ، كان الترويج لإمكانية زوال هذا العنصر [29] بعد النزيف البشري الذي تعرّض له المجتمع الجزائري ، إذ تُجمع عديد الدراسات عن هلاك بين 800 ألف الى حوالي 1 مليون جزائري [30] بفعل الجوائح والأوبئة والكوارث بأنواعها ، ناهيك عن المجازر التي اقترفها الاحتلال الفرنسي على خلفية المقاومات الشعبية في مختلف ربوع البلاد ، في واحة الزعاطشة سنة 1849م وبالأغواط سنة 1852م و لدى ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864م وعقب مقاومة الشيخ المقراني سنة 1871م .

2-2 أثر الكوارث الطبيعية على الجزائريين :

كما أنّه لا يُمكن فصل دور الكوارث الطبيعية في تأزم أوضاع الجزائريين ، حيث أنها كانت فاعلة بقوّة وملازمة للأزمات الصحية والوبائية بل كانت حاضنة خصبة لانتشارها وتطوّرها . لقد أصبح الجزائريون حقيقة أسرى داخل مثلّث مأسوي بثلاث أضلاع : السياسة الاستيطانية المجحفة والأوبئة والجوائح الفتاكة بالإضافة للكوارث الطبيعية من زلازل وجفاف وغزو أسراب الجراد ونتيجتها المجاعات [31].

*-عرفت الجزائر عديد الزلازل شمال البلاد ، لكن الأسوأ من حيث القوّة والزمن كان زلزال 02 جانفي 1867م الذي ضرب منطقة البليدة وخلّف فيها كثير الهلع والأضرار والضحايا ، ولأنّه أيضا تزامن مع كوارث أخرى طبيعيّة وصحيّة زادت من معاناة الساكنة لاسيما الجزائريين ، بالبليدة والعفرون وحمر العين وموزاية [32].

لقد كان زلزال جانفي 1867م مدمّرا حيث اتفقت الكتابات والتقارير حول قوّته والتدمير الذي أحدثه في مناطق البليدة ، بالنسبة لتحطيم المنازل وتحوّل أغلب السكان الى دون مأوى ، وما ترتّب عن ذلك من تعرُّضهم لعديد المشاكل الصحيّة من تعفّن المياه وانتشار الأمراض وانعدام النظافة .

*-بالنسبة لغزو أسراب الجراد فقد عرفت الجزائر عديد الاجتياحات لهذه الأسراب ، وذلك في أربعينيات القرن التاسع عشر مخلّفا دمارا غذائيا كبيرا ، وذلك حسب تقارير المكاتب العربية ولعلّ الغزو الخطير كان في سنوات 1864م ثمّ سنة 1866 م والذي عُرف بعام الجراد ، والذي قدم جنوبا من الأطلس الصحراوي باتجاه الشمال حيث قضى على الأخضر واليابس . كان للجراد بعدها موجات أخرى متتالية سنوات 1869م-1870 م بمنطقة مجانة وبعدها اجتاح الجزائر العاصمة سنة 1874م وسهل المتيجة و مليانة وصولا الى الجلفة جنوبا وبوسعادة وبذلك يمكن القول أنّه كان اجتياحا شاملا وهالكا ومدمّرا مخلّفا ورائه أهوالا مسّت الجزائريين مباشرة في أقواتهم [33] . لقد كان الوضع خطيرا وسيّئا بالنسبة للجزائريين الذين لا يحتكمون الاّ على مساحات زراعية محدودة والتي تُدار بوسائل وطرق تقليدية ، في حين كان للمعمّرين المزارعين من الامكانيات واتساع المساحة ما يُقلّل من تأثيرات غزو الجراد ، في حين كانت من الفرص السانحة لليهود المُرابين في تكثيف نشاطهم لدى الفلاحين المتضرّرين .

*-كنتيجة لما سبق من كوارث وأوبئة كان لابدّ للمجاعة أن تضرب الجزائريين ، باعتبارها ذات صلة مباشرة بالأراضي الزراعية المنهوبة من طرف ادارة الاحتلال لصالح المعمّرين على حساب الجزائريين البسطاء. فالمجاعات ليست بالظاهرة الجديدة على الجزائر المحتلّة ، فقد شهدت عدّة مجاعات على غرار مجاعة 1838م التي مسّت شرق البلاد وتلتها مجاعة 1847م التي دامت 3 سنوات والتي كان من مسبباتها غزو الجراد ، لكن تبقى مجاعة عقد ستينيات القرن التاسع عشر هي الأخطر في الفترة 1866م-1868م واتساع انتشارها عبر جلّ التراب الوطني ومن مسبباتها أيضا ما سبق ذكره من جراد وأوبئة وجفاف ساد البلاد ، وفيها بلغت الأزمة ذروتها وبلغ الغبن حدوده من ارتفاع الضرائب وفوائد الديون والمراباة التي فرضها اليهود ، وارتفاع أسعار المواد الغذائية لاسيما الحبوب وشحّ الأمطار ونقص مياه الشرب ، ممّا اضطرّ عديد القبائل والعروش للتنقل وترك مواطنهم الأصليّة [34] . كما وصف الكثير الوضع المأسوي للمجاعات في الجزائر في هذه الفترة ، عندما وصل الأمر بالناس لأكل ما وُجد من الحشائش وحتى ما لا يحلّ أكله [35] ، فكان هلاك الناس بمئات الآلاف ولم تنج الحيوانات والمواشي من الهلاك لعدّة أسباب منها "الرهمة" الذي يصيب الماشية بسبب قلّة العلف فيقضي عليها ، وعموما بسبب الجفاف ، ولقد هلكت الحيوانات بالملايين[36] وفي الحقيقة فإنّ هذه المجاعة لم تكن وليدة الكوارث الطبيعية التي ذكرنا فحسب ، بل أيضا نتيجة السياسة الاستعمارية القائمة على الإفقار والاستغلال ونهب الجزائريين ، وهو ما يفسّر انحصار المجاعة لدى الجزائريين دون المعمّرين .

3- دورالجوائح و الكوارث الطبيعية في التمرد على الاحتلال والمقاومة :

من بين كثير التفسيرات التي قدّمها الساسة والمفكرون الفرنسيون عن أسباب التمرّد والانتفاضات الشعبية في الجزائر ضدّ الاحتلال الفرنسي ، أنّها نتيجة انتشار المجاعات وسط الأهالي والضغوط الاجتماعية والاقتصادية الأخرى [37] ، ولأنّ سوء الأوضاع الاجتماعية والجوائح والكوارث الطبيعيّة تزامنت مع وجود الاحتلال

وممارساته فقد شكّلت أحد الاسباب الرئيسية لانتفاضات الجنوب الغربي لدى أولاد سيدي الشيخ منذ سنة 1864 ، باعتبار هذه القبائل كان لها سيطرة و تمكّن في المنطقة الجنوبية الغربية من البلاد .

قد تكون هناك دوافع أخرى لانتفاضة أولاد سيدي الشيخ بعد تقدّم قوات الاحتلال في المنطقة ، وما اقترفته الادارة الفرنسية في حق أهل المنطقة وخاصة بعض قادة القبائل ، من اغتيالات ومخادعات لبسط نفوذها الاّ أنّ هؤلاء القادة تفطنوا لنوايا الاحتلال وقرّروا الانتفاض ضدّ الاحتلال والعودة الى خصال أجدادهم في مواجهة الأجنبي والمحتل منذ أيام اعتداءات الاسبان .

تبقى الدوافع الاجتماعية والاقتصادية قائمة بفعل انعكاسات الظروف الواقعة شمال الجزائر (منطقة التل) التي تشكل حلقة قوية في تجارة الجنوب الغربي ، والتي تعتبر مصدر الغذاء الرئيسي من الحبوب لذلك ظلّت المعاناة قائمة وشكّلت فرصة لسكان المنطقة للتمرّد ضد الاحتلال الفرنسي منذ 1864 حيث لم تنقشع أزمات المجاعة والكوارث حتى حلول سنة 1869 [38] . وبعد انتفاضة المقراني سنة 1871 ذهبت سلطات الاحتلال في بسط نفوذها بإقامة مراكز للاستيطان بالاستيلاء على مساحات من أخصب الأراضي على حساب فلاحي وسكان الأرياف ومناطق الجنوب الغربي ، كما فرضت على قبائل أفلو والبيض منع التنقل وهي المناطق الرعوية خلال موسم الترحال من 1879م الى سنة 1881م ممّا تسبب في فقدان مئات المواشي [39]، وقد تزامن ذلك مع اندلاع ثورة الشيخ بوعمامة فكان لذلك الأثر الكبير في انضمام الكثير من قبائل المنطقة لثورته .

2-3 موقف الادارة الاستعمارية في مواجهة الأوبئة والكوارث :

نظرا للأوضاع الصحيّة الخطيرة التي بدأت بالظهور في الجزائر منذ السنوات الاولى للاحتلال ، ولأنّ المصحّات (المستشفيات) لم تكن بالكمّ الذي يستوعب تلك الأعداد الهامّة من المصابين بالأمراض والأوبئة أصبح من الضروري على الادارة الاستعمارية الفرنسية ، مواجهة الخطر الدّاهم الذي لم يعد يستثن جنودها وحتى أطبّائها وممرضيها [40] .

بدأت الادارة الاستعمارية الفرنسية بإرسال تحذيرات الى الجنود في سيرهم خارج المدن ، بتوخي الحذر وعدم أكل أي شيء لا يعرفونه [41] .

استعملت سلطات الاحتلال الفرنسية الطب في مواجهة الأمراض والأوبئة من خلال اختراق المجتمع الجزائري ، الذي شاعت لديه ممارسة الطب التقليدي الذي عجز أمام فتك تلك الأوبئة والجوائح والمضاعفات الناتجة عن الكوارث الطبيعية لاسيما في ستينيات القرن التاسع عشر ، وفي نفس الوقت وقف العدوى في صفوف المعمّرين وأفراد الجيش الفرنسي المتواجدين بالمناطق ذات الاحتكاك بالأهالي الجزائريين [42]

لعلّ من سبل المواجهة الفرنسية للأوبئة والأمراض عمليّة الحجر الصحّي ، وخاصّة التلقيح الذي من خلال ممارسته على الأهالي في المناطق الموبوءة أدركت الادارة الفرنسية فعاليته الاجتماعية والنفسية على الأهالي ، لما له من تأثير سياسي ومعنوي ومن ثمّ استخدامه كوسيلة للتوغل وتوسيع الاحتلال لاسيما في المناطق الداخلية [43] . وفي العمليات العلاجية الخاصّة في القرى وخارج المدن ، كانت تتمّ بالمجان وقد وجدت طريقها الى الأهالي ، لتصل لاحقا الى اقامة المستشفيات والمراكز الطبية في مختلف العمالات حتى أصبح هناك قاعات علاج تابعة للمكاتب العربية يشرف عليها أطباء فرنسيين بمساعدة الآباء البيض ، واستطاعت أن تتوغل لدى القبائل والعائلات وأسر الأهالي [44] .

هذا ومنذ منتصف القرن التاسع عشر سرّحت الحكومة الفرنسية لأطبائها بالتنقل الى أماكن تجمّعات الجزائريين ومنحهم العلاج المجاني ، لاسيما بعد صدور قرار الحاكم العام Randon سنة 1852م

واقامة ملاجئ للأيتام والعجزة ، خاصة أثناء جوائح 1867م في اطار مخطط الطب والكنيسة من أجل الادماج والتنصير [45] .

و بالمقابل ظلّ موقف الأهالي حذرا ومترددا تجاه حملات التلقيح والتطبيب التي نظمتها الادارة الفرنسية ، لاسيما في المناطق الداخلية مثلما كان أيضا تحفظهم على التعليم الفرنسي لكن لم يكن يعني ذلك مقاطعتهم لتلك الحملات ، وأحيانا بسبب لجوئهم للوسائل الطبية التقليدية والتي عجزت أمام الأوبئة والجوائح الفتاكة . ولأنّ السلطات الاستعمارية اجتهدت في مواصلة حملاتها الطبية لأثبات نجاعة أطبائها ومستوى تقدم العلاج لديها ، وبالتالي لتأكيد تفوّقها العلمي والحضاري وأنّها صاحبة رسالة وحضارة وأنّها مصدر اشعاع ومحاربة للبؤس والدمار الذي يعيشه الأهالي [46] .

4-الخاتمة :

عرفت الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي موجات متتالية من الجوائح والأوبئة والتي توطّنت في البلاد ، وكان لها آثار وخيمة على صحّة الجزائريين وتردّي أحوالهم المعيشية ، بل عملت على الفتك بمئات الآلاف منهم ، وقد تزامنت مع عديد الكوارث الطبيعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فزادت معاناتهم . لقد شكّلت السياسة الاستيطانية في الجزائر ضغوطا قويّة على الجزائريين ، فأفقرتهم بعدما نهبت أراضيهم وقطعت أرزاقهم وشكّلت في الوقت نفسه دافعا أساسيا في التمرّد على الادارة الفرنسية والانتفاضة ضدّها باعتبارها مسؤولة على ما حاق بهم جوع وفقر ودمار .

ومنه أمكننا الوقوف على نتائج عديدة أهمّها :

-أنّ جلّ الجوائح والأوبئة دخيلة على الجزائر وتم نقل العدوى اليها عن طريق الموانئ من خلال البواخر التجارية والعسكريّة ، وان كان بعضها توطّن قبل الاحتلال الاّ أنّ خطرها ازداد ابان الاحتلال البغيض .

-تزامن موجات الجوائح والأوبئة مع الكوارث الطبيعية لاسيما في ستينيات القرن التاسع عشر ، ممّا ضاعف من معاناة الجزائريين وجعل حياتهم بائسة ساهم الاحتلال في تدهورها مستغلاّ تلك الظروف لبسط سيادته وممارسة أنواع النّهب والاستغلال .

-تعرُّض الجزائر الى أزمة ديموغرافية بفعل هلاك شعبها بفعل الجوائح والكوارث والحروب قارب المليون ضحية فقط في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ناهيك عن خسائر الثروة الحيوانية والتي عدّت بالملايين .

-تحوّل الضغوط الاجتماعية والاقتصادية بفعل الجوائح والكوارث الى حركات تمرّد وانتفاضات ضدّ الاحتلال الفرنسي في عديد الانتفاضات خاصّة عند انتفاضة أولاد سيدي الشيخ وثورة الشيخ بوعمامة .

-موقف الادارة الفرنسية من تلك الجوائح والأوبئة والكوارث ، من خلال موقف داعم للمعمّرين والحاميات العسكرية بفرض قوانين الوقاية وتوفير الأدوية والتلقيح ، واقامة المستشفيات العسكرية أوّلا ، وبعد ادراكها لعدم جدوى سياسة إبادة الجزائريين عمت الى توسيع دائرة الوقاية والتلقيح واقامة المستوصفات لاسيما في المناطق التي يتواجد بها المعمّرون الى جانب الجزائريين ، وذلك لتحقيق هدفين : أوّلهما حتى لا تنتقل العدوى للكولون ، وثانيهما من أجل كسب الجزائريين وادّعائها الحفاظ على صحّتهم ووجودهم في اطار ما أسمته برسالة التحضير .

التهميش :

[1]- الأوبئة الأسوأ التي غيرت مسار البشرية من ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا ، https://arabic.rt.com/health/1099634/ تاريخ النشر 2020/04/02 .

[2]- فلّة موساوي القشاعي ، وباء الطاعون في الجزائر العثمانية –دوراته وسلّم حدّته وطرق انتقاله ، مجلة دراسات في العلوم الانسانية والاجتماعية ، مجلد 01 ، عدد 01 ، 2001/06/30 ، ص 134 .

[3]- Jean Marchika , La Peste en Afrique septentrionale , histoire de la peste en Algérie de 1363 à 1830 , Alger , jules Carboned , 1927 , p183.

[4]-Panzak Dainiel , La Peste dans l'empire Ottoman 1700-1850 , Edit Peeters –Leuven , Belgique , 1985 , 112 .

[5]- صليحة علامة ، تاريخ الأوبئة في الجزائر (الطاعون –الجذري-التيفوس-الملاريا) ، مجلة القرطاس ، عدد 02 ، جانفي 2015 ،ص 211 .

[6]- نفسه .

[7]- Épidémie de peste dans l'Ouest algérien après 57ans de silence , http://www.infectiologie.com/UserFiles/File/medias/JNI/2005/CL/col4-4-razik.pdf .

[8]- https://www.who.int/fr/news-room/fact-

[9]- Vincent Martin Antoine , le choléra d'après neuf épidémies qui ont régné à Alger depuis 1835 jusqu' en 1865 , Edit Victor Roger, Paris , 1867 , p 09 .

[10]- فلة موساوي القشاعي ، مرجع سابق ، ص 194 .

[11]- Kamel Kateb , Européens " Indigènes " et Juifs en Algérie (1830-1962) Préface de Benjamin Stora , Edition El Maarifa , 2010 , p 62 ..

[12]- Larbi Abid , La pratique Médicale en Algérie de la période Coloniale à nos jours , Ed ANEP , 2008 , p 42 .

[13]- Pauline de Noi fontaine , Un regard écrit : Algérie , Impr : Alpha . Lemale , 1857 , p 231 .

[14]- عمر جبري ، وباء الكوليرا في الجزائر أثناء بداية مرحلة الاحتلال الفرنسي ، دراسة تحليلية للو اقع الصحي والديموغرافي عام (1831-1871) ، مجلة آفاق فكرية ، المجلد 09 ، عدد 02 خاص ، 2021 ، ص 210 .

[15]- Ghanem Larbi , Ghanem Nour El houda : Les plus grandes Epidémies et Pandémies de l'Afrique , Cas de l'Algérie entre l'époque Ottomane et Coloniale , مجلة البحوث التاريخية ، مجلد 6 ، عدد 01 ، جوان 2022 , p 885 .

[16]- Jean-Louis-Geneviève Guyon , Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique : depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours , Imprimerie du Gouvernement , Alger , 1855 , p 444 .

[17]- صليحة علامة ، مرجع سابق ، ص 213 .

[18]- التيفوس ..مرض يسببه القمل والبراغيث ، https://www.aljazeera.net/encyclopedia/encyclopedia-healthmedicine/2017/8/5 ، نشر بتاريخ 2017/08/05 ، زيارة بتاريخ 2022/08/26 ، 22س و 57 د.

[19]- صليحة علامة ، مرجع سابق ، ص 214 .

[20]- الجيلالي صاري ومحفوظ قداش ، الجزائر صمود ومقاومات 1830-1962 ، تر: أوذاينية خليل ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2012 ، ص 228 .

[21]- صليحة علامة ، مرجع سابق ، ص 215 .

[22]- مصطفى خياطي ، الطب والأطباء في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية ، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والاشهار ، وحدة الطباعة الرويبة ، 2014 ، ص 121 .

[23]- Bonnafont .Jean Pierre , Géographie médicale d'Alger et de ses environs , Alger , Imprimerie du Gouvernement , Brachet et Bastide , Libraires , 1839 , p 74 .

[24]- صليحة علامة ، مرجع سابق ، ص 217 .

[25]- يحي بوعزيز ، سياسة التسلُّط الاستعمارية والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954 ، ديوان المطبوعات الجامعيّة ، الجزائر ، ص 126 .

[26]- أرزقي شويتام ، سياسة الاستيطان الفرنسي في الجزائر 1830-1914 ، مجلة التاريخ المتوسطي ، مجلد 02 ، عدد 02 ، ديسمبر 2020 ، ص 209 .

[27]- Fallet Céline , Conquète de l'Algérie , Rouen Mégard et Cie –Libraires 1856 , p 202 .

[28]- يحوي المرسوم 22 مادّة ، أقرّه وزير الحرب بتخصيص قرضًا قدره 50 مليونًا من أجل إنشاء المستعمرات الزراعية في الجزائر وعلى الأشغال العامة التي تهدف إلى ضمان ازدهار هذه المستعمرات. وحُدِّد عدد المستوطنين بـ 12 ألف مستوطنا لعام 1848.

[29]- Kamel Kateb , Européens " Indigènes " et Juifs en Algérie (1830-1962) –représentations et réalités des populations , INED-PUF , Paris , 2001 , p 31 .

[30]- Djilali Sari , Le Désastre démographique , SNED , Alger, 1982 , p 132 .

[31]- Buzet l'Abbé , Histoire des désastres de l'Algérie 1866-1867-1868 –Sauterelles- Tremblements de terre –Choléra .- Famine , I.C.A , Alger , 1869 , p 06 .

[32]- Op cit , p p 43-50 .

[33]- يحي بوعزيز ، المجاعة في الجزائر أواخر عقد الستينات من القرن الـ 19 ، مجلة الأصالة ، عدد 33 ، الجزائر ، 1976 ، ص 9 .

[34]- أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج1 ، دار البصائر ، الجزائر ، ص 149 .

[35]- محمد الصالح العنتري ، مجاعات قسنطينة ، تح وتق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1974 ، ص 98 .

[36]- الطيب مختاري ، مو اقف الجزائريين من السياسة الاستعمارية (العقارية) عقب مجاعة 1867 ، مجلة الانسان والمجال ، مجلد 08 ، عدد 01 ، جوان 2022 ، ص 125 .

[37]- ابراهيم مياسي ، دورثورة الشيخ بوعمامة في التصدي للتوسع الاستعماري ، مجلة المصادر ، مجلد 01 ، عدد 01 ، جوان 1999 ، ص 134.

[38]- محفوظ قداش ، جزائر الجزائريين 1830-1954 ، تر: محمد المعراجي ، منشورات ANEP ، الجزائر ، 2008 ، ص 234 .

[39]- يحي بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، 1996 ، ص 292 .

[40] -L'éonce Lamarque , Recherche historique sur la médecine dans la régence d'Alger , Imp Baconnier , 1951 ,p95.

[41] Anonyme , Note sur divers cas d'empoisonnement en Algérie , In des fruits de Redoul , In R.M.M.C.P.M ,1853 p233.

[42]- Marcel Emerit , In R.ATXCIX , vol 99 , n° 442-443 Alger , La société historique Algérienne , Institut de géographie 1955 , p 141 .

[43]- Yvonne Turin , Affrontement culturel dans l'Algérie Coloniale , écoles médecines religion , 1830-1880 , Alger , Ed Houma 2003 , p 306 .

[44]-Hélène Abadie Feyguine , De l'assistance médicale des femmes indigènes en Algérie , Montpellier , 1905 , p3 .

[45]- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج7 1830-1954 ، ط1 ، دار المغرب الاسلامي ، بيروت ، 1998 ، ص 229 .

[46]- أبو القاسم سعد الله ، نفس المرجع .